الطبيعة الإنسانية والثورة: تطبيقات مصرية

نبيل فولي محمد

تقديم:

وقعت في التاريخ الإنساني ثورات كثيرة ـ صغيرة وكبيرة ـ توزعت بين الشرق والغرب، وقام بها العامة مع الخاصة في بعض الأحيان، وانفرد بها أحدهما أحيانا، ودفعت إليها أسباب اقتصادية في بعض الأحوال، وأسباب اجتماعية في بعضها الآخر، وأسباب دينية في بعضها الثالث، وهكذا. إلا أن باقة الثورات العربية الأخيرة دفعت كثيرين إلى التأكيد على ما كان يُنفَى قبل قليل، وهو أن الشعوب العربية شعوب صبورة لكنها إذا انفجرت لا يقف أمام ثورتها شيء، وكأن هذا من الصفات الثابتة للشعوب العربية دون شعوب الأرض قاطبة.

وما تسعى إليه هذه السطور هو أن تؤكد على وحدة الطبيعة البشرية، وأن العوامل التي دفعت العرب إلى الثورات الأخيرة على الاستبداد والظلم، قد دفعتهم من قبل ويمكن أن تدفعهم من بعد إلى الثورة، وكذلك قد دفعت ويمكن أن تدفع أمما أخرى إلى إشعال الثورة في وجه ظالميها. ولا ينفي هذا أن الخصوصيات الثقافية تشارك بنصيب في الدفع إلى الاعتراض والثورة، إلا أن زمن الخمول والوهن يضعف تأثير الثقافة، وتبقى طاقة الإنسان في دفع المحو عن نفسه حاضرة في كل الحالات باعتبارها المخزون المشترك والأخير في محاولة إعادة أمور التعامل البشري إلى توازنها برد الحق وردع المعتدي.

وإذا كان "أشد العنصريين غلواء لم يجسروا على أن يصنفوا الأجناس والسلالات إلى عناصر محاربة وأخرى غير محاربة"[١]، فإن أحدا لم يجسر كذلك على أن يقسم البشر إلى ثوريين وغير ثوريين، فالقابلية موجودة لدى كل مجتمع إنساني كقابلية القراءة والكتابة عند الأطفال. وهذا يعني أن الإشكالية التي تحاول هذه السطور حلها تتمثل في هذا السؤال: ما مدى إمكانية العثور على ما يؤكد وحدة الطبيعة

١- جمال حمدان، **شخصية مصر.. دراسة في عبقرية المكان**، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٤م، المجلد ٢، ص ٧١٣.

البشرية وسط الأحداث الثورية العربية العارمة التي شهدها عام ٢٠١١م؟ وماذا يمكن أن نلحظ من خصوصيات في المثال المختار لهذه الدراسة (الثورة المصرية) في مقابل خصوصيات أخرى لابد أن نعثر عليها في أي ثورة يقوم بها أي مجتمع إنساني آخر؟

ولعل أهمية هذا الموضوع تأتي من التأكيد على أننا نسجل إنجازات الشعوب في عمومها، ونثني على أنفسنا حين ننجز عملا بحجم الثورات العربية الأخيرة، إلا أننا لا نحمل أي رؤية عنصرية كالتي تبنتها بعض الأقلام الغربية ضد الشرق في حال من الزهو الحضاري الغربي في القرن التاسع عشر وغيره. وتتبنى هذه الدراسة منهجا تحليليا نقديا، يهتم بعرض الفكرة وعناصرها ومكوناتها، ويلاحظ تأثير الوقائع التاريخية والأوضاع الاجتماعية في حكم المفكر على الشخصية وقدرتها على صناعة الثورة.

حقيقة الثورة:

و"الثورة" تبقى في حقيقتها وسيلة سياسية ذات طابع اجتماعي، يلجأ إليها المجتمع أو مجموعة منه للضغط في اتجاه تغيير أوضاع تبدو في نظرها سلبية، أو لأجل توفير مقوِّم حياتي مغيَّب بيد سلطة قائمة. أو هي "نوع من التغيير الجذري والعميق يستهدف اكتشاف الأخطاء وعلاقات الظلم والقواعد الفاسدة في حياة الأفراد والشعوب، ليدمرها ويبني مكانها علاقات سليمة تشيع العدل، وتصنع التقدم"(٢). وقد مال بعض الأدباء العرب إلى اعتبار الثورة بنتيجتها، لا بوسائلها والمتبنين لها، فهي في رأيه ثورة إن أدت إلى تطوير الواقع بصورة إيجابية، وشيء آخر إن أدت إلى عكس ذلك، يقول الأستاذ توفيق الحكيم في كتابه **ثورة الشباب**: "والفرق بين الثورة والهوجة (والتأثر الاصطلاحي واضح بها أسموه هوجة عرابي) هو أن الهوجة تقتلع الصالح والطالح معا، كالرياح الهوج تطيح بالأخضر واليابس معا، وبالشجرة المثمرة والشجرة الصفراء جميعا. أما الثورة فهي تبقي النافع وتستمد منه القوة، بل وتصدر عنه أحيانا، وتقضي فقط على البالي المتهافت، المعوق للحيوية، المغلق لنوافذ الهواء المتجدد، الواقف في طريق التجدد والتطور"(٣).

ووفقا لهذا المقياس لن تكون أشهر ثورتين في العصر الحديث حقيقتين بهذا الاسم، أعني الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م والثورة الروسية سنة ١٩١٧م، وذلك لما ارتبط بهما ـ خاصة في البدايات ـ من سفك واسع المدى لدماء الأبرياء وغيرهم على السواء، بل إن مجمل نتيجة الثورة الروسية، حتى بعد الهدوء

٢- أحمد إبراهيم، **التنظيم الثوري**، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ط٢، ١٣٩١هـ/ ١٩٨٢م، ص ١٢.

٣- توفيق الحكيم، **ثورة الشباب**، مكتبة مصر، دار مصر للطباعة، القاهرة، ١٩٨٨م، ص ١١.

والاستقرار، كانت سلبية بصورة كبيرة، خاصة فيما يتعلق بالحريات وحقوق الإنسان. ولأجل هذا لابد من اعتبار التغيير الجذري هو الأصل في الثورة، وليس نوع هذا التغيير. ولكي نميز بينها وبين حركات الإصلاح التي يستعمل وصف الثورة فيها على سبيل المجاز(٤)، فلا بد من أن نضيف إلى هذا التغيير شرط أن يكون بدون رغبة السلطة القائمة، سواء تمت تنحيتها من مواقعها، أو دُفعت إلى التغيير دفعا وهي في مواقعها.

وعادة ما يكون اللجوء إلى الثورة بعد فشل الأساليب الأخرى التي تكون أقل كلفة وخطورة. وهذا يعني أن الثورة ليست في نفسها ضرورة في عملية التغيير، إلا عند فشل الوسائل التي تسبقها في سُلّم المحاولات الإنسانية التي تتدرج حسب الكلفة والجهد الذي تتطلبه كل واحدة منها. و"الناس ـ كما يقول برتراند رسّل ـ لا يتذكرون دائما أن السياسة والاقتصاد والتنظيم عامة تنتمي لمجال الوسائل لا الغايات"(٥). والثورة هنا ـ كالحرب تماما ـ وسيلة لفك اشتباك حول نقاط ومواقف يختلف عليها طرفان، إلا أنهما (أي الثورة والحرب) من الخطورة بمكان بحيث لا يشبههما في سلم الدواء وأصناف العلاج إلا الكيّ المؤلم، والذي يلجأ إليه الطبيب عند فشل كل طرق العلاج والتداوي الأخرى.

ولا يبدو أي فعل ثوري باعتباره فعلا بسيطا يمكن أن ينطلق بشكل تلقائي، بل هو فعل مركب شديد التعقيد، واستثنائي أيضًا، لأن استنفار قُوَى مجتمع ما أو قوة اجتماعية ما وتصديرها كأداة دافعة نحو تغيير أوضاع أي كيان سياسي، يعني أننا قطعنا قبل ذلك أشواطا فكرية ونفسية عبرت كثيرا من الحواجز الصعبة والمثبطات الجمة كي نتجاوز وضع السكون أو الحركة الهادئة إلى وضع الحركة الهادرة. ولا يسمى الاعتراض على أوضاع يستحيل تغييرها بيد الجماعة الإنسانية "ثورة"، كما لا يسمى الوضع الصعب والتغيير العميق أو السطحي الذي ينتج عن فعل غير إنساني بهذا الاسم كذلك، أي أن الثورة عمل في دائرة الممكن الإنساني الذي قد يكون ـ بلغة المنطقيين ـ ممكنا قريبا وقد يكون ممكنا بعيدا، لكنه في كل الأحوال قابل للوقوع والتحقق بشروط تتصاعد حسب قرب احتمالات تحققه وبعدها.

٤- ومثالها حركة بطرس الأكبر الإصلاحية في روسيا، والتي يقول عنها توينبي: "من ميزات النظام المسكوفي الاستبدادي المركزي أن النهضة كانت نتاج قرار رجل هو بطرس الأكبر الذي فرض من عل، في بدء القرن الثامن عشر، الثورة التكنيكية والثورة الاجتماعية المتفرعة عنها": أرنولد توينبي، **العالم والغرب**، تعريب: نجدة هاجر وسعيد الغز، منشورات المكتب التجاري، بيروت، ط ١، ١٩٦٠م، ص ١٦.

٥- برتراند رسل، **السلطة والفرد**، ترجمة: لطفية عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، القاهرة، ٢٠٠١م، ص ١٠٤.

أسباب الثورة:

إن احتمالات الثورة واردة على أي مجتمع إنساني، إلا أن هناك شروطا وظروفا عامة تحكم هذا الحراك البشري الكبير المسمى بالثورة، وفي الغالب يكون الاضطهاد والتضييق على الشعوب والجماعات في حرياتها وأرزاقها دافعا أساسيا من دوافع الثورة على الحكام، إلا أن مستوى هذا الاضطهاد ـ أيضًا ـ ليس هو الحكَم الفصل في قيام الثورة أو عدم قيامها. ووفقا لهذا، فمن الصعب جدا أن نجزم بأن ظروفا معينة لو توفرت في الواقع الخارجي، فمن الضروري أن تؤدي إلى ثورة المجتمع(٦)، ذلك لأن النفس الإنسانية المنفعلة هي التي سيتقرر عن طريقها توظيف هذه الظروف في الوصول إلى حال الثورة أوْ لا. "إن مجرد الوعي بعلاقات الظلم ـ كما يقرر بعض الباحثين ـ ليس كافيا لإحداث التغيير الثوري. إن تدخل الإنسان تدخلا فاعلا لإحداث التغيير هو أساس تحول الوعي بالظروف إلى واقع ملموس في حياة الناس"(٧).

وقد عبّر ول ديورانت عن دهشة بالغة وهو يتكلم عن الحضارة المصرية القديمة وهدوء إنسانها، برغم ما حُمِّل من ضرائب بناء الإمبراطوريات والدول، قال ديورانت: "من أغرب الأشياء أن حضارة كانت تستغل العمال هذا الاستغلال القاسي لم تعرف أو لم تسجل إلا عددا ضئيلاً من الثورات"(٨). إلا أن ما لم يتنبه إليه المؤرخ الكبير هو أن الثورة في أي مجتمع إنساني لا تتناسب طرديا مع مستوى الاضطهاد الذي يتعرض له المجتمع، ولو كان الأمر كذلك لكان الأرقاء هم أكثر الناس ثورة، وهو أمر لا يثبته التاريخ.

بل قد يقوم الأقل معاناة بالثورة دون من هو أكثر معاناة في المجتمع نفسه، وقد شهدت المستعمرات الإسبانية الأمريكية في القرن التاسع عشر مثالا مدهشا على هذا، مما دفع أحد الكتّاب إلى القول بأن "من المفاهيم الشائعة الخاطئة أن الثورات تندلع عادة بين جماهير الشعب التي تشعر بالاستياء،

٦- ومع هذا تبدو أسباب هذا اللون من الثورات في الواقع أقرب إلى الوضوح من أسباب ما يسمَّى "الثورة العلمية" مثلا، وقد قال أحد الكتّاب الغربيين: "أما سر عدم قيام ثورة علمية في آسيا، فهذا لغز من الألغاز الكبيرة الهامة في التاريخ، وهو لغز يؤكد عجزنا الأساسي عن فهم عمليات الثورة العلمية، كما يؤكد عجزنا عن إدراك مستلزمات هذه الثورة" كاديل ب. هاسكنز، **الثورة العلمية والسياسة العالمية**، ترجمة: عمر القباني، دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع، القاهرة، ١٩٦٧م، ص ٣٩. وقارن: ٥٣. ولا يعني هذا عدم وجود محاولات لقراءة أسباب الثورة العلمية: انظر مثلاً: ول ديورانت، **قصة الحضارة.. روسو والثورة**، ترجمة: فؤاد أندراوس، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١م، المجلد ٤٢، ص ١١ – ١٥.

٧- أحمد إبراهيم، **التنظيم الثوري**، ص ٢٥ – ٢٦.

٨- ول ديورانت، **قصة الحضارة.. الشرق الأدنى**، ترجمة: محمد بدران، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١م، المجلد ٢، ص ٨٧.

وتعاني من الظلم والقهر"، ودليله على خطأ هذا الفهم هو أن "الغالبية العظمى من الأمريكيين الإسبان الذين عانوا أشد الظلم كانوا من الهنود والزنوج والأخلاط العرقية... (في حين أن) الذين اندلعت بينهم الثورات في أمريكا الإسبانية هم... من أصل إسباني، وولدوا في العالم الجديد"(٩). نعم، اشترك الفريقان في المعاناة من ممارسات التاج الإسباني في إدارة البلاد الشاسعة، إلا أن المعاناة لا تُتَرجَم إلى ثورة ـ كما سبق ـ إلا وفقا لشروط في الواقع وأخرى في شخصية الثوار أنفسهم، وهو ما توفر في ذاك الوقت في إسبان أمريكا دون شركائهم في الوطن من الزنوج وسكّان البلاد الأصليين.

وهذا يعني أنه ربما توافرت دواعي الثورة والتغيير في مجتمع ما دون أن تقع، فطبقة "شودر" أو المنبوذين الهندية (حوالي ٢٠٠ مليون نسمة) تعيش في بلادها أوضاعا مزرية منذ قرون طويلة، حيث المبالغة في الاحتقار وامتهان الكرامة الإنسانية وتقديم العظيم والحقير من الطبقات الأخرى عليهم بدون داع موضوعي، ومع هذا لم يصدر عنهم إلى الآن فعل ثوري جاد يصرخ في وجه هذا الواقع الظالم(١٠). والسبب في هذا الكبت الثوري ـ وسر خطورته أيضًا ـ هو أن الدجل الديني للبراهمة الكهنة اتخذ من قديم وطوال أجيال متتابعة صورة استعمارية، ودفع الكهنة إلى أن يحجزوا لأنفسهم المقاعد الأولى في السلم الاجتماعي والديني، بدون مسوِّغ معقول من تقوى أو استقامة أو عبقرية امتازوا بها وتعطّل منها الآخرون، وأوهموا الآخرين(١١) ـ من منطلق لاهوتي ـ أن المنازل التي وُضِعوا فيها في درجات السلم

٩- ألبرت براجو، **ثورات أمريكا الإسبانية وحركات الاستقلال بين عامي ١٨٠٨ - ١٨٢٥**، ترجمة: عبد الحميد فهمي الجمال، مراجعة: محمد غريب جودة، سلسلة الألف كتاب الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٧م، ص ٣٤.

١٠- تقول ماياواتي كوماري ـ رئيسة وزراء إقليم أوتار براديش المنتمية إلى المنبوذين الهنود ـ في مقال لها بـ: **نيوزويك**: "في عام ١٩٨٤م خضت عباب السياسة بتفرغ تام، وأخذني زعيم حزب أكثرية المجتمع، كانشي رامجي، تحت جناحه. وكان والداي قلقين لأن مخاطر أمنية كانت تحدق بي، فقد كنا نزعزع أسس نظام سياسي قديم ومتجذر كان يثري البعض ويفقر حشودا واسعة. ما أمدّني بالقوة في تلك الأيام العصيبة كان سوء المعاملة التي يخضع لها المنبوذون. وعرفت أنه كي يتغير هذا الوضع، كان لا بد من إطلاق ثورة اجتماعية لتنظيم هؤلاء المهمشين اجتماعيا حتى يطالبوا بحقوقهم. وبصفتي امرأة ومن طبقة المنبوذين، واجهت الافتراءات والتجاهل والإهانات وحتى التهديدات الجسدية، وخلافا للكثير من القادة في الهند، لم أعط امتيازات سياسية. كان علي الكفاح من أجل كل إنش أشغله اليوم في الميدان السياسي" http://www.awapp.org/wmview.php?ArtID=2456.

١١- استُغِلَّت في ذلك لحظة الضعف التاريخي التي صادف أن مر بها سكان الهند الأصليون حين غزاهم الآريون، فكتبوا عليهم وضاعة أبدية، يبقى محيراً جداً أنهم قبلوها واستكانوا إليها.

الاجتماعي والديني إنما هي من صناعة السماء.

ولعل هذا أكبر لون من ألوان الكبت في التاريخ، إذ سلط هؤلاء الكهنة على المنبوذين عقولهم ـ أي عقول المنبوذين أنفسهم ـ ودواعي التقوى الدينية التي يتحلون بها، وأوهموهم أن الدرجات التي وضعوهم فيها إنما هي اختيار الرب لهم حين خلقهم من قدميه، فإذا التزموا ما ألزمهم الرب، واختاروا لأنفسهم من المنازل ما اختار لهم، كان ذلك من علامات التقوى التي تضمن لهم حياة أفضل بعد هذه الحياة. لقد نجح الكاهن الماكر في أن يجعل عدوَّ المنبوذ في داخل عقله، وهو شعوره بالمهانة والدونية الطبيعية التي لا سبيل إلى تغييرها، حتى تخيل المنبوذ أنه كما أن للشمس نظاما وللقمر نظاما، فكذلك حياته ووضعه الاجتماعي والديني المتدني هي من القرارات الإلهية الصارمة، والتي تقذف بمن يخالفها إلى دائرة السخط الإلهي.

وليست هناك آمال للديكتاتور أعظم من هذه الآمال، أن يحس شعبه بأن الاضطهاد والقمع أوضاع طبيعية في جو من التفويض الإلهي للحاكم، والذي يجب أن يحترم الشعب قواعده دون أن يلزم الديكتاتور نفسه بأيّ قواعد إلا التسلط والقمع.

هذا، وقد حاول بعض الباحثين المصريين قبل سنوات قليلة تحديد الظروف العامة التي تؤدي إلى وقوع الثورة، فقال: "التراكمات الكمية المطلوب توافرها لبلورة الثورة نستطيع أن نلخصها في الشروط الخمسة الآتية:

١- وجود تناقض اجتماعي ـ سياسي بين السلطة القائمة وبين المحكومين...

٢- السلطة القائمة تعجز عن حل التناقض القائم، وتسعى للاحتفاظ بزمام الأمور في يدها...

٣- وجود جماعة سياسية سرية أو علنية، حزب أو جبهة، تسعى لحل التناقض القائم لصالحها، وفق ما تعبر عنه من مصالح القوى المشاركة.

٤- جموع الناس تتطلع إلى التغيير وتنتظره يأسا من الوضع القائم...

٥- اختيار اللحظة المناسبة، أو الظرف المواتي للاستيلاء على السلطة"(١٢).

ومع أهمية البحث للثورة عن مقدمات كمية قابلة للقياس، إلا أن العناصر المذكورة آنفاً هي

١٢- عاصم الدسوقي وآخرون، **الثورة والتغيير في الوطن العربي عبر العصور**، أعمال ندوة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، تحرير: عبادة كحيلة، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية بكلية الآداب، جامعة القاهرة، الطبعة ١، ٢٠٠٥م، ص ١٦ – ١٧.

خطوات العمل الثوري، أو هي المراحل التي تمر بها الثورة حتى تشب بالفعل وتستولي على السلطة، وليست مجرد مقدمات تمهد لها، وتؤدي إليها. ولعل من ثغراتها الواضحة أنها تهمل العوامل النفسية للثوار، وهي مسألة كمية يمكن قياسها من خلال سلوكياتهم الظاهرة.

من الجيد إذن أن نقرر هنا أن الثورة تصنعها أسباب واضحة، ولا تصنعها الأوهام، ولا تقوم في غياب أسباب تدفع إليها، وقد قرر علم النفس الاجتماعي هذه الحقيقة حين قال: "يكاد يكون من المستحيل خلق وقوع حقيقي لبعض الأحداث الاجتماعية، فمثلا من الخطر أن نحاول تشكيل جمهور غاضب، أو بث الثورة في جماعة صغيرة من الناس... ويكاد يكون من المتعذر حتى البدء في خلق وهم الثورة فيهم"(١٣). إلا أنه من الضروري أيضًا أن نقرر أو نكرر أن الأسباب الصانعة للثورة بعضها يقع خارج الإنسان وبعضها الآخر يقع داخله، ولا تستغني الثورة في قيامها عن أي منهما، إذ يتعاونان سويًا في صناعة العمل الثوري.

إن الثورة نتاج ظروف في الواقع تؤثر تأثيرها في ظل وجود نفوس إنسانية تنفعل بها، والسؤال هنا هو: ما الذي يصنع توجهات الإنسان واختياراته في كل الأحوال، الثقافةُ، أم المعلومات، أم الجغرافيا، أم التاريخ؟ وما وظيفة الخصوصيات البيئية في تمييز جماعة بشرية عن أخرى في هذا الجانب؟ وهل من المفترض أن للمجتمع في الإقليم الجغرافي الواحد طبيعة لا تتغير؟

الإنسان بين الثابت والمتغير:

الثورة بوصفها المعروف هي وضع أو حال ينفرد به الإنسان، وهذا الأمر قائم في الأساس على احتمال الواقع الإنساني لصور متعددة هي محل اختيار الإنسان ومجال التطبيق لحريته، في حين أن واقع أيّ كائن آخر من سكان الأرض هو من الاستقرار والثبات بحيث لا يتغير بصورة جذرية أبدا، ولا تتبدل أيّ من عناصره الأساسية على الإطلاق، فهي كائنات لا تاريخية في عمومها. ومع هذا، فلا ريب أن الإنسان من الناحية البيولوجية الطبيعية(١٤) هو الإنسان في كل مكان، وهو العطاء الإلهي الثابت لكل أفراد هذا النوع، والذي عليه تقوم استعدادته وتظهر الملكات والمواهب والقدرات الكامنة في تكوينه، متى أتيح لها

١٣- وليم و. لامبرت وولاس إ. لامبرت، **علم النفس الاجتماعي**، ترجمة: سلوى الملا، مراجعة: محمد عثمان نجاتي، مكتبة أصول علم النفس الحديث بإشراف: نجاتي، دار الشروق، القاهرة، ط ٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص ٧٤.

١٤- لا يقوم لدينا دليل علمي على أن الطفرات الجينية التي تكلم عنها التطوريون، وفسروا بها ظهور نوع من الكائنات من نوع آخر أقدم منه، قد أحدثت في الإنسان تغييرات وسعت الفجوة البيولوجية بين الأجيال.

ذلك: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾(١٥).

وقد كابر بعض أصحاب الرأي من الغربيين زمنا في وحدة هذا الجانب في البشرية، ونظروا إلى تفوقهم الحضاري القائم ليعللوا به منح أنفسهم شهادة تفوق عرقي ساحق على بقية الشعوب والأمم. إلا أن هذا كان نغمةً نشازا في دنيا العلم وُظِّفت توظيفا استعماريا محترفا لإقناع الأمم المستعمَرة بأنه لا فائدة أبداً من مقاومتها لأعدائها، وذلك لما أقرته الطبيعة من تفوقهم عليها.

لقد أصبحت هذه الأفكار الآن في عداد الأساطير العلمية التي لا ينبغي أن تبقى إلا في حدود الخرافات المحرومة من دليل يؤيدها، والأفكار المدسوسة في العلم لأغراض غير علمية على الإطلاق(١٦).

والحقيقة أنه بالإضافة إلى هذا الجانب الإنساني الثابت أو المشترك بين البشر، والذي لا يحتاج منا إلى كثير كلام، فإن هناك جانبا آخر متغيرا من بيئة إلى أخرى مما يحيى فيه الإنسان، وهو الذي يتيح هذا الشكل أو ذاك من إنضاج الإمكانات والملكات الإنسانية الكامنة وإبرازها من القوة إلى عالم الفعل على المستويين الفردي والجماعي، وتتمثل عناصره في كل من الجغرافيا والثقافة حسب البيان التالي:

- **الجغرافيا:**

تمثل البيئة الطبيعية والمناخ عوامل مؤثرة في صناعة شخصية الإنسان، فللبيئة الجبلية عطاؤها النفسي والاجتماعي الذي يختلف عن عطاء البيئة السهلية، وعطاء أودية الأنهار يختلف عما تتركه الصحراء الجافة في شخصية الإنسان من تأثير، وهكذا. ويظهر تأثير كل بيئة جغرافية في الإنسان بسبب طريقة الحياة التي تفرضها، لا من جهة ما تتيحه من منتجات ومحاصيل فحسب، ولكن بالأساس من ناحية عادات الملبس والمشرب والمسكن وشتى تدابير العيش التي يفرضها التكيُّف مع هذه البيئة أو تلك، وما يتعلق بذلك من أنماط التعاطي بين وحدات المجتمع وأفراده.

١٥- سورة النحل، الآية: ٧٨.

١٦- من الكتب المهمة التي ناقشت هذا الموضوع كتاب: Not in our Genes لأستاذ البيولوجيا ستيفن روز وآخرين، وقد ترجمه مصطفى إبراهيم فهمي تحت عنوان "علم الأحياء والأيديولوجيا والطبيعة البشرية"، وصدر في سلسلة **عالم المعرفة** الكويتية، العدد ١٤٨، رمضان ١٤١٠هـ/ أبريل ١٩٩٠م. كما "وقف فرانز بوس، الشخصية الرئيسية في الأنثروبولوجيا الأمريكية، بصلابة مع القول بأن الفروق بين البشر هي ثقافية، وليست بيولوجية" راسل جاكوبي، **نهاية اليوتوبيا.. السياسة والثقافة في زمن اللامبالاة**، ترجمة: فاروق عبد القادر، سلسلة عالم المعرفة الكويتية، العدد ٢٦٩، صفر ١٤٢٢هـ/ مايو ٢٠٠١م، ص ٥٣.

إن الذي اعتادت قدماه السعي في الرمال الرخوة ذات اللون الواحد يكابد صعوبة الخطو فيها، لا بد أن يبقى في نفسه أثر مختلف عما يتخلف في نفس من اعتاد أن يسعى في أرض كساها الطين وزينتها الخضرة والأشجار، وكذلك يختلف الأثر النفسي للبيئة المحصورة بين شواهق الجبال والأخرى المفتوحة على مصراعيها كاشفة الأفق مفتوحا أمام عيني الإنسان. إلا أن البيئة الجغرافية ليست حرة التأثير إلى هذه الدرجة، ولو كانت ـ وهي الجامدة الساكنة ـ فاعلا مستقلا حرا لما أنتجت إلا لونا واحدا من التأثير في كل من يحيى فيها، ومن هنا يقع الإنسان في شراك التشاكل والتشابه بين أفراده، ويصير ضحية جبر جغرافي لا يمكنه الخروج عنه، فهذه البيئة تلد حمقى دائما، وتلك تنتج أذكياء، وهؤلاء جبناء، وأولئك متهورون، وهكذا. ومن هنا تأتي وظيفة الثقافة في رفع درجة الفاعلية الإنسانية وإتاحة فرص للتنوع لا آخر لها من الوجهة النظرية.

وهنا تمثل الجغرافيا ظرفا مكانيا أو وعاء حاضنا للثقافة، ونتيجة للتفاعل الذي يحدث بينهما تتشكل الحياة الإنسانية بصورتها الفردية والجماعية على السواء، فـ: "البيئة قد تكون في بعض الأحيان خرساء، ولكنها تنطق من خلال الإنسان، ولربما كانت الجغرافيا أحيانا صماء، ولكن ما أكثر ما كان التاريخ لسانها"(١٧)، فالجغرافيا مؤكدة التأثير، إلا أنها صماء لا تنفرد بذلك.

بل ذهب بعض الكتّاب إلى أن لجماعية الدول أو التقائها في تجمعات دولية "أثراً أقوى من الجغرافية"(١٨)، وهو ما يعني إمكانية توفر عوامل صناعية معينة يمكنها توجيه التأثير الجغرافي وجهة معينة، ومقاومة صعوبات الجغرافية في جلب مزيد من منافع الطبيعة. وليس في هذا ولا ذاك إلغاء لتأثير الجغرافيا، ولكنه التفاعل بين عوامل متعددة تدفع إلى توسيع دائرة التنوع في عالم البشر.

ـ **الثقافة:**

المقصود بها هنا هو ما تراكم في هذا البلد أو ذاك من تجربة اجتماعية ومعرفية تعمل في صناعة الشخصية والمجتمع الإنسانيين، وذلك لأن أي بقعة في الأرض يعيش فيها مجتمع إنساني لابد أن تشهد طائفة كبيرة جداً من الأفعال والانفعالات البينية وذات العلاقة بالغير ـ إن وُجِد غير ـ وتتنوع صور الفعل والانفعال هذه شكلا ومحتوى، مما يراكم عادات وتقاليد ومستويات معرفية توظفها الجماعة الإنسانية من جديد في حالات فعلها وانفعالها.

١٧- حمدان، **شخصية مصر**، المجلد ١، ص ١٣.

١٨- هاسكنز، **الثورة العلمية والسياسة العالمية**، ١٣.

وتبدو الثقافة هنا ـ بخلفيتها الجغرافية ـ مجالا لصناعة نماذج عقلية ونفسية بشرية لا تُحصَى نظريا، خاصة إذا أضفنا إلى هذه الثقافة أو التاريخِ المشترك التاريخَ الخاص أو تجارب الحياة الشخصية للأفراد، والتي هي من التنوع والتفاوت بمكان.

- **مصر وإنسانها:**

لا نستطيع ابتداء ـ على الأساس الذي تأكد آنفاً ـ أن نصف المصري ـ ولو بتأثير أحداث ثورة ٢٠١١م العارمة ـ بأنه ثوري بطبيعته، بل ربما كان العكس هو الأقرب إلى الحقيقة حسب الاستقراء التاريخي، فالمصري كان وما يزال معروفا بالصبر الطويل.

وقد قدمت لنا كتب الإسلاميين ومروياتهم محاولات عديدة لقراءة الشخصية المصرية أرضا وإنسانا، وحددت لنا من وجهة نظرها الخصائص العامة للمجتمع في مصر، فقد زعم كعب الأحبار "أن الله عز وجل لما خلق الأشياء، جعل كل شيء لشيء، فقال العقل: أنا لاحق بالشام، فقالت الفتنة: وأنا معك. فقال الخصب: أنا لاحق بمصر، فقال الذل: وأنا معك. وقال الشقاء: أنا لاحق بالبادية، فقالت الصحة: وأنا معك..."(١٩).

وقال أحمد بن علي المقريزي بعد ذلك بقرون طويلة: "ومن أخلاق أهل مصر: الإعراض عن النظر في العواقب، فلا تجدهم يدّخرون عندهم زاداً كما هي عادة غيرهم من سكّان البلدان، بل يتناولون أغذية كل يوم من الأسواق بكرةً وعشياً. ومن أخلاقهم: الانهماك في الشهوات، والإمعان في الملاذ، وكثرة الاستهتار، وعدم المبالاة"(٢٠).

وتجاوز بعضهم حد المعقول، فقاس الشخصية المصرية في عمومها على أحداث فردية أو جزئية موغلة في القدم، ووسمها من هذا المنطلق ـ بلا تروّ ـ بصفات إيجابية وسلبية، ومن ذلك رميهم أهل مصر بعدم الغيرة على النساء، مستدلين على هذا بقصة امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام وموقف زوجها من ذلك(٢١)، وكذلك القول بأن الرجال في مصر تابعون لحكم النساء، معللين ذلك بأن الرجال غرقوا مع

١٩- شهاب الدين النويري، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٤م، ج ١، ص ٢٧٢.

٢٠- أحمد بن علي المقريزي، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، تحقيق: محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٨م، ج ١، ص ١٤٩.

٢١- المصدر السابق، المجلد ١، ص ١٤٨.

فرعون، فاتخذ النساء أزواجا من العبيد والأُجَراء، واشترطن عليهم ألا يفعلوا شيئاً بغير إذنهن(٢٢)!

وهي في الحقيقة قراءات جزئية تعتمد غالبا على مرويات رديئة أو قرئت قراءة غير دقيقة، وتعكس ـ إن صحت روايةً وتحليلا ـ أحوال زمانها ونظرة قائليها، ولا تعني الثبات التام للعناصر التي تحملها الشخصية في المجتمع المصري ولا أيّ مجتمع آخر. والتشابه الملحوظ في شخصية المصري في عصرين مختلفين إنما مرجعه إلى ثبات بعض العناصر المؤثرة في تشكيل شخصيته، خاصة ما كان منها مرتبطا أساسا بجغرافية الإقليم.

وقد علّق الأستاذ عباس العقاد في موقف مشابه على هجاء أبي الطيب المتنبي لكافور الإخشيدي وإسناده في سياق هذا بعض النقائص إلى المصريين(٢٣) قائلا: و"هل كان المتنبي إلا شاعرا محنقا يقول ما لابد أن يقوله كل شاعر محنق في ذلك الزمان؟... فأبيات المتنبي إن هي إلا صيحة حَنِق تنفعنا إذا أردنا أن نفهم نفسه ومضامين شعره، ولكنها لا تنفعنا إذا أردنا أن نفهم بها نفس أمة، أو نقابل بها بين جيل وجيل"(٢٤).

ولا يعني هذا بالضرورة أن يكون كل من يصف الشخصية المصرية بمثل ما سبق أنه موتور يثأر لنفسه، أو مؤمل خاب أمله، إلا أن كثيراً من الأحكام التي قيلت في هذه الناحية ـ كما هو الواقع ـ افتقدت الدقة التي يشترطها العلم بسبب الشعور النفسي الذي قابل به المفكر هذه اللحظة التاريخية أو تلك.

هذا، وقد شُغل المعاصرون كأسلافهم بفحص شخصية المصري، خاصة مع ظهور وتطور الدراسات في علم النفس والاجتماع والبحوث الأنثربولوجية، ويمكن أن تطالع ذلك في مؤلفات سياسية وجغرافية واجتماعية وفي مذكرات المشاهير وكتب التراجم الشخصية، فضلا عن كثير من المقالات التي نشرتها المجلات والصحف السيارة. ونستطيع أن نقسم آراء المعاصرين في هذه المسألة قسمين رئيسين،

٢٢- أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الحكم القرشي المصري، **فتوح مصر وأخبارها**، تحقيق: محمد الحجيري، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص ٣٣.

٢٣- منها قول أبي الطيب:

إني نزلت بكذّابين ضيفهم	عن القرى وعن الترحال محدود
جود الرجال من الأيدي وجودهم	من اللسان فلا كانوا ولا الجود
ما يقبض الموت نفسا من نفوسهم	إلا وكان فى يده من نتنها عود

٢٤- عباس محمود العقاد، **الأعمال الكاملة**: سعد زغلول، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ٣، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٦م، المجلد ١٨، ص ٢٠ – ٢١.

قدم أولهما رؤية إيجابية متفائلة للشخصية المصرية، في حين قدم ثانيهما رؤية سلبية متشائمة، وفيما يلي بعض النماذج على كل وجهة نظر منهما:

أولا: الرؤية الإيجابية المتفائلة:

من أصحاب هذه الرؤية الشيخ محمد عبده الذي وصف المصريين بأن "طباعهم مرنت على الاحتمال، وألفت مقاومة القهر بالصبر... (وأنهم) قوم سريعو التقليد، أذكياء الأذهان، أقوياء الاستعداد للمدنية بأصل الفطرة، فما أيسر أن تفعل الحوادث فيهم، فتنبههم إلى الأخذ بما يحفظ عليهم حياتهم في ديارهم من أي الوجوه"(٢٥).

ويبدو أن تجربة محمد علي الكبير كانت حاضرة في ذهن الشيخ وهو يسجل هذا التقييم، على الرغم من موقفه السلبي منها(٢٦)، فقد أتيح للمصري في هذا العهد أن يشارك في بناء دولة حديثة، فكان عند حسن الظن به، فخرج من طبقات الشعب ـ فلاحيه وتجاره وعلمائه ـ مهندسون وأطباء وفلكيون وجنود وضباط على درجة عالية من المهارة في أداء أعمالهم، ولولا أخطاء محمد علي القاتلة وتربص الأوربيين به، لما فشل هؤلاء في صناعة دولة لها تأثيرها الكبير في العالم إلى الآن.

وتقوم نظرة محمد عبده هنا على أصل مهم، وهو أن الإنجاز لدى الشخصية المصرية مرتبط بإتاحة الفرصة لها، ما قد يعني حاجتها الدائمة إلى المنبه الذي ينبهها، أو بأسلوب أوضح: هي شخصية قادرة على الإنجاز الهائل، إلا أنها لا تبادر إليه ابتداء من تلقاء نفسها(٢٧). وربما يكون هذا مستلهما من تجربة الشيخ نفسه مع أستاذه جمال الدين الأفغاني الذي تفتقت على يديه مواهب التلميذ المغمور حتى ملأت سيرته الأرض، يقول محمد عبده عن أحوال الشعب المصري قبل قدوم الأفغاني إلى مصر: "إن أهالي مصر قبل سنة ١٢٩٣هـ (سنة قدوم جمال الدين إلى مصر) كانوا يرون شؤونهم العامة، بل والخاصة،

٢٥- محمد عبده، **الأعمال الكاملة**، تحقيق وتقديم: محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط ١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، ج ٣، ص ١١١.

٢٦- المصدر السابق، ج ١، ص ٨٥٤.

٢٧- ولعلنا نلمح ظلال هذا المعنى في قول حافظ إبراهيم في قصيدته ذائعة الصيت "مصر تتحدث عن نفسها":

ورجالي لو أنصفوهم لسادوا ... من كهول ملء العيون ومُرْد
لو أصابوا لهم مجالا لأبدوا ... معجزات الذكاء في كل قصد
إنهم كالظُبا ألح عليها ... صدأ الدهر من ثواء وغِمد
فإذا صيقل القضاء جلاها ... كُنّ كالموت ما له من مردِّ

ملكا لحاكمهم الأعلى ومن يستنيبه عنه في تدبير أمورهم... ولا يرى أحد منهم لنفسه رأيا يحق له أن يبديه في إدارة بلاده، أو إرادة يتقدم بها إلى عمل من الأعمال يرى فيه صلاحا لأمته، ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى أنهم محكومون مصرَّفون فيما تكلفهم الحكومة به وتضربه عليهم"(٢٨).

وقد بدا محمد عبده موفقا جدا وهو يصف تأثير شيخه العميق، حين اعتبر قدومه إلى مصر نقطة فارقة ساعدت على توفير أجواء عقلية ونفسية ملائمة للنهوض، فهو ـ في رأي التلميذ النجيب ـ عالم واسع المعرفة، ذكي جريء، نزل مصر فالتف حوله بعض الطلاب والموظفين والأعيان، واشتغل بالتدريس واعتنى بتصحيح الأفكار، ولفت مريديه إلى الاهتمام بالشؤون العامة، فكان تلاميذه يبثون أفكاره في أهلهم وأصحابهم، "فاستيقظت مشاعر، وانتبهت عقول، وخف حجاب الغفلة في أطراف متعددة من البلاد، خصوصا في القاهرة... ولا زال هذا الشعاع يقوى بالتدريج البطيء، وينتشر في الأنحاء على غير نظام"(٢٩).

ثم جاءت الحرب العثمانية الروسية سنة ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م، فظهر حرص الناس على تتبع أخبارها من خلال ما كان يرد إلى الأجانب في مصر من الصحف الأوربية، وتطرق تأثير ذلك إلى الصحف "العربية" التي أبدت ميلا إلى الروس ضد العثمانيين، مما حرك الماء الراكد، وأثار الخلاف في الرأي بين الناس، حتى صدرت صحف أخرى ناوأت الأولى، واتسع مجال الموضوعات التي تطْرقها، "وأخذ الشيخ جمال الدين الأفغاني في حمل من يحضر مجلسه من أهل العلم وأرباب الأقلام على التحرير وإنشاء الفصول الأدبية والعلمية في مواضيع مختلفة... وأخذت الحرية الفكرية تظهر في الجرائد إلى درجة يظن الناظر فيها أنه في عالم خيال"(٣٠).

ومن أصحاب هذا الرأي المتفائل في تقدير الشخصية المصرية أيضًا: الأستاذ فتحي رضوان، أحد فرسان الحزب الوطني قبل الثورة، وصاحب الموقف الإيجابي عموما من ثورة الضباط الأحرار سنة ١٩٥٢م، بل هو من وزراء عهد الثورة الأوائل، يقول: "ثورات شعب مصر، ولا سيما الحديثة منها، تعلن في غير خفاء، أن المصريين هم في الأغلب الأعم، شعب يؤثر الاعتدال، ويكره التطرف، وبالتالي ينفر من العنف في القول والفعل، ويستهويه الرفق فيما يأخذ وفيما يدع. ولكنه ـ ككل حليم ـ إذا غضب ينفجر غضبه وكأنه بلا سبب واضح، أو بغير مقدمات تمهد له، وتؤدي إليه. ولا سبب لهذا إلا أنه يحسن ضبط

٢٨- محمد عبده، **الأعمال الكاملة**، ج ١، ص ٥٢٧.

٢٩- المصدر السابق، ج ١، ص ٥٢٩.

٣٠- المصدر السابق، ج ١، ص ٥٣٠.

نفسه، ويطيل الصبر على الأمور، حتى يرى هذه الأمور قد تجاوزت كل حد، وأن الذي صبر عليهم أطمعهم فيه هذا الصبر"(٣١).

ومع أن التقييم هنا قد جعل الثورة مرتكزا وأساسا له، فجاء محاولة لقراءة شخصية المصري من زاوية العمل الثوري نفسه، إلا أنه رأى أن للوصول إلى الحال الثوري مقدماتٍ تمتد في أعماق الشخصية، فكأنه قرأ شخصية المصري منطلقا من عمله الثوري الحديث، وهو عكس ما نحاوله هنا، أعني قراءة قاعدة انطلاق الشخصية في عمومها وكيف أدت خصائصها إلى بروز الثورة واحدًا من سلوكها السياسي والاجتماعي في العصر الحديث.

ولم يفت صاحب هذا الرأي تقديم تفسير متفائل أيضًا لما يُعتبَر سلبيا في الشخصية المصرية، فما هو عنده إلا أثر من آثار الاضطهاد والكبت الطويل الذي لم يكن له فيه يد: "يبدو هذا الشعب المسالم المتدين الرقيق اللطيف الصبور زاهدا في الحكم عاجزا عن الحرب، مشفقا من أهوال الصراع، أو أن الثقة بالنفس تعوزه، والاعتماد على الغير يريحه، ويخرجه من ورطات السياسة ومتاعب الحكم. والواقع أن المصريين حيل بينهم وبين ميادين القتال أجيالا، لأن الذين حكموهم خافوا من أن يتسلحوا أو يتدربوا على صنعة الحرب. ثم أرهبوا هذا الشعب بألوان من المظالم، جعلت المصري بعامة والفلاح بخاصة لا يدري أيبقى في داره حتى طلوع النهار، أم سيساق إلى حيث لا يدري"(٣٢).

وقد أصدرت وزارة الإرشاد القومي المصرية التي كان يتولاها رضوان كتابا عنوانه **محاكمات الثورة**، وخصصت جزءه الرابع لمحاكمات كريم ثابت، وصدرته بكلمة تحت عنوان "فلسفة محاكمات الثورة" حملت المذاق السابق نفسه، ومما جاء فيها: "لعل أبرز الخلال التي يتحلى بها المصريون هي السماحة، ففي أرضهم سماحة، وفي نيلهم سماحة، وفي طبعهم سماحة. وقد أرجف المرجفون أن هذه السماحة ما هي إلا غفلة واستسلام، وزعم الشانئون أن المصريين قوم يستجيبون لكل ناعق، وأن المحن والخطوب التي تحالفت عليهم قد أوهنت عزائمهم، وأعفت قلوبهم، وهدت قواهم، فاستسلموا للمقادير تسيرهم كيفما تشاء، وتطوح بهم إلى حيث تريد"(٣٣).

٣١- فتحي رضوان، "أربع ثورات في ثورة"، **مجلة الهلال**، العدد ٩، السنة ٧٩، رجب ١٣٩١هـ/ سبتمبر ١٩٧١م، ص ٢٤.

٣٢- المصدر السابق، ص ٢٥.

٣٣- كمال عبد الحميد كيره (إعداد)، **محاكمات الثورة.. كريم ثابت**، المضبطة الرسمية لمحاضر جلسات محكمة الثورة، مكتبة شؤون محكمة الثورة، القاهرة، ١٩٥٤م، ص ٦٣١.

ولعل مما يدخل تحت هذا الموقف المتفائل من الشخصية المصرية محاولة بعض الباحثين قراءة "الشخصية المصرية في مصر القديمة" من خلال ما تركت من آثار عينية وفكرية وما وصلنا من أخبارها وتاريخها، وقد توصل الباحث في مجمل آرائه في هذه الدراسة إلى إثبات مجموعة من الصفات الإيجابية للمصري، ومنها: "التدين، والارتباط الأسري، والارتباط بالأرض والوطن، وارتباطه بالأخلاق"(٣٤)، وأنه يميل إلى التفاؤل والتسامح، ويتوقع الخير، ولا يستسلم للظلم(٣٥). وقد لا تختلف الشخصية المصرية في هذه الأحكام العامة عن الشخصية الشامية والعراقية والهندية.

وفي كل الأحوال نبدو نحن البشر ـ في مثل هذه الأحكام العامة والخطيرة ـ حبيسي مشاعرنا وآمالنا والظرف التاريخي الذي يمر بنا، مع أنه من المستحيل أن تظل أمة على هذا الثبات المستمر طوال دهور وأزمنة كالتي نتحدث عنها حين نتناول الشخصية المصرية.

ثانيا: الرؤية السلبية المتشائمة:

ولعل أصحاب هذه الرؤية أكثر من السابقين عددا، فيما يمكن إرجاعه إلى ما ساد الحياة المصرية والعربية المعاصرة من انتكاسات وتراجعات على المستويات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، يقول أحد رجالات حزب الوفد في عهد المملكة المصرية عن تركيز السلطات في يد مجلس قيادة ثورة، وحرمان الشعب من أن يحكم نفسه بنفسه: "ولقد أعلن الشعب عن رفضه لكل هذا بسلبيته التي تعوّد أن يتسلح بها في عهود القهر، وبدأ يتحدث بطريقته الخاصة: الإشاعات والنكتة"(٣٦). وتبدو عبارته "في عهود القهر" ذات دلالة خاصة هنا، وهي أن الظرف المحيط حين يكون أقوى من الأمة، فإنها تتكيف معه، أو تواجهه بهذه الأدوات السلبية التي أشار إليها. ومن هنا يصبح حكمه ظرفيا، وليس مطلقا.

وقال أحدهم معبرا عن استقبال المصريين لتولي فاروق المسؤولية: "أقبل المصريون الذين نشأوا على تأليه السادة يلتهمون ما تنشره الصحف عن ذكاء فاروق ورقة قلبه وسرعة خاطره وسعة اطلاعه وتخصصه في الآثار القديمة..."(٣٧).

إلا أن أهم قراءة لشخصية المصري تنزع هذه النزعة المتشائمة، هي قراءة عبقري الجغرافيا

٣٤- عريان لبيب حنا، **الشخصية المصرية في مصر القديمة**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص ٣١٧.

٣٥- انظر: المصدر السابق، ص ٢٧، ٥٧، ٦٣.

٣٦- إبراهيم طلعت، **مذكرات إبراهيم طلعت.. أيام الوفد الأخيرة**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص ١٨٠.

٣٧- محمود فوزي، **حكام مصر.. فاروق**، مركز الراية للنشر والإعلام، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م، ص ١٥.

الراحل جمال حمدان، ليس فقط لأنه حاول استيعاب جهود من سبقه إلى هذه القراءة من المعاصرين مخالفا وموافقا، ولكن لأنه قرر أثناء ذلك أحكامًا مهمة حول موقع الثورة من شخصية المصري، يقول في تحديد القراءات المعاصرة للمزاج المصري العام: "هناك إجماع شبه عام على أن الاعتدال، بمعنى القصد والتوسط والبعد عن التطرف والجموح،... واحد من أبرز سمات المصري العادي وخصائص المجتمع المصري... هذا المزاج المعتدل (هو) من وحي البيئة المعتدلة والمناخ اللطيف، أي النظرية البيئية المزاجية كما يرى البعض، أو... ميراث تاريخ حضاري ألفي من التربية والتجربة... أي النظرية البيئية المكتسبة ـ كما يصر البعض الآخر"(٣٨). إلا أنه لم يشأ أن يفهم هذه الخصائص على وجه إيجابي، فـ: "إن آفة مصر وجريرة الشخصية المصرية ـ كما يقول ـ هي الاعتدال المفرط، وفرط المحافظة التي تفضّل الحلول الوسطى ومساوماتها الجزئية على الحلول الجذرية، والتطور على الطفرة، والإصلاح على الثورة"(٣٩).

وإذا كان المصري قد وُصف بالدماثة والسماحة، فقد نتج عن ذلك أن يكون "شرط النجاح والبقاء في مصر أن تكون اتباعيا لا ابتداعيا، تابعا لا رائدا، محافظا لا ثوريا، تقليديا لا مخالفا، وواليا لا معارضا. ولذلك فإن مصر ليست، ولا يمكن أن تكون ثورية حقا، وبالتالي غير خالقة ولا قائدة جدا"(٤٠).

ويصل حمدان من مجمل ذلك إلى "أن مصر المحافظة أبدا، المفرطة الاعتدال جدا، والتي لا تؤمن بالطفرة، ولكن بالتدريج الوئيد أساسا، لم تعرف الثورة الشعبية بالكاد، ولكن الانقلاب العسكري فقط وبالتحديد، وذلك منذ الفراعنة والمماليك حتى اليوم بلا استثناء ولا اختلاف... فخلال أكثر من ٥٠٠٠ سنة لم تحدث أو تنجح في مصر ثورة شعبية حقيقية واحدة بصفة محققة مؤكدة... مقابل عشرات بل مئات من الانقلابات العسكرية يمارسها الجند والعسكر دوريا"(٤١).

ومع أن الدكتور حمدان يضيف في سياقات حديثه هذا بعض الكلمات ـ مثل "البعض يرى" و"تمضي النظرية" ـ التي توحي بأنه مجرد مسجل لاتجاهات فكرية في قراءة الشخصية المصرية، إلا أن انفعاله الواضح يكشف من خلال تحليلاته ميله إلى مجمل هذه الآراء التي لا ترى التاريخ المصري إلا

٣٨- حمدان، **شخصية مصر**، المجلد ٤، ص ٥٣٦.

٣٩- المصدر السابق، المجلد ٤، ص ٦١٦.

٤٠- المصدر السابق، المجلد ٤، ص ٥٣٩.

٤١- المصدر السابق، المجلد ٤، ص ٥٧٨، وقارن: ٥٤٨.

مسلسلا طويلا من سلبية الشعب تجاه الحاكم. والحقيقة أنه لا بأس بأن يتمسك المفكر بالاستقراء التاريخي في مثل هذه القضايا، باعتبار أنه كل ما يملك، إلا أن إهمال عناصر التغيير ربما يضر بالرؤية المستقبلية التي يقدمها.

ولا نريد أن نظلم عبقرية هذا الرجل بإهمال الإشارة إلى أنه قدم في موضوعنا هذا جانبين مستقبليين مهمين:

الأول: قوله بأن استمرار الانحسار والتراجع المصري سيصل بنا "يوما إلى نقطة الانكسار بعد الالتواء، وبدل المرونة سيحدث التصادم، ومحل المهدئات ستحل الجراحة، أي سنصل إلى نقطة اللاعودة إلى الحل الوسط، وعندئذ سيفرض الحل الجذري الراديكالي نفسه فرضا". إلا أنه قال بعدها مباشرة: "ولكن بعد أن يكون المستوى العام قد تدنى إلى الحضيض، والكيف قد تدهور إلى مجردِ كم، والمجد إلى محض تاريخ، وذلك هو الثمن الفادح للاعتدال"(٤٢).

الثاني: ذهابه إلى أنه ليس المراد من هذا النقد أن يتبرأ المصري من مصريته، ولكن من عيوبها، وذلك بأن يكون مصريا جديدا(٤٣). ومعنى هذا أيضًا هو أنه قد يرضى عن جوانب في الشخصية المصرية، لكن لا شيء منها يتعلق بصناعة الثورة. كما أنه يؤكد بهذا مرونة الشخصية الإنسانية وقبولها للتقويم.

لقد تمسك حمدان في مجمل هذه الرؤية بالاستقراء التاريخي، وحوّله إلى شاهد عام يكاد ينفي به عن المزاج المصري الشعبي صفة الثورية مطلقا، وأنه إن ثار فيما سيأتي فلن يأتي ذلك منه إلا اضطراراً بعد أن يؤدي به هذا الاعتدال السلبي والميل إلى الحلول الوسط إلى "الانكسار بعد الالتواء".

ولا نريد أن نحاجج هذا العبقري الراحل (توفي رحمه الله سنة ١٩٩٣م) إلى أحداث الثورة الشعبية العارمة التي وقعت في مصر بعد وفاته بأقل من عقدين، ولا حتى تولية الشعب لمحمد علي الكبير قبل أكثر من قرنين، إلا أننا في كل الأحوال ينبغي أن نتوقى إصدار الأحكام الصارمة، ذلك لأن الجغرافيا إن كانت صارمة تماما، فإنها ليست العامل الوحيد المؤثر في صناعة الحياة والشخصية الإنسانية.

وقد كتب حمدان هذا الكتاب في وضع سياسي مصري غير مُوَات عموما، كما أن الرجل النبيل كان قد آثر العزلة بعيدا عن أجواء التنافس غير الشريف الذي عانى منه، ولذلك غلبت عليه هذه الرؤية

٤٢- المصدر السابق، المجلد ٤، ص ٥٤٩.

٤٣- المصدر السابق، المجلد ٤، ص ٥٥٠ - ٥٥١.

المتشائمة، وكاد يشخص محنته الخاصة بقوله ـ كما سبق: "شرط النجاح والبقاء في مصر أن تكون اتباعيا لا ابتداعيا، تابعا لا رائدا، محافظا لا ثوريا، تقليديا لا مخالفا، ومواليا لا معارضا". وهي أحكام ـ مع الاعتراف بقسوتها ـ لا نسلم بأنها ملازمة للمصري والمصريين في عمومهم.

قراءة بأحكام مشروطة:

إن الأحكام المشروطة في مثل هذه الأحوال أكثر مناسبة للنظر إلى أوضاع تتعرض باستمرار لتغير صغير أو كبير، خاصة في عصرنا هذا الذي يُوصَف بأن الثابت الوحيد فيه هو "التغير"!

إن افتراض مثل هذه الآراء جملة، سواء ما كان منها إيجابيا وما كان سلبيا، واعتبارها حكما مطلقا على الشخصية المصرية أو غير المصرية، ينطلق من افتراض مفاده أن ثقافة الإقليم وشخصية المكان ثابتتان ضرورة، وهو ما لا يحتاج نفيه في الحالين إلى جهد فكري كبير، يقول جلبرت ـ كما يترجم حمدان نفسه: "إن شخصية الإقليم كشخصية الفرد يمكن أن تنمو، وأن تتطور، وأن تتدهور"(٤٤). والثقافة كذلك تنمو وتتطور وتتدهور. ولا أعني بذلك أن تغير شخصية الإقليم بالتحديد أمر لازم وضروري، ولكني أعني أن ثباتها ليس ضروريا، والحاصل هو أن التغير الجزئي متحقق ومشاهَد، وإن كان تراكم التغيرات لا يعني النسخ الكامل لشخصية الإقليم ولا الثقافة الأصيلة.

ثم إنه إن كان للتأثر بالظرف الحاكم والتجربة الاجتماعية الخاصة تأثيره في مثل هذه الأحكام، فإن من واجب الفكر أن يتجرد أو حتى يتخفف من هذا قدر الإمكان.

وإذا كان من الممكن أن نتسامح مع ما يطلقه العامة من أحكام عابرة في هذا الصدد، كأن يصفوا من يسخطون عليه بقولهم "إن أصله فرعون" إشارة إلى التجبر، ومن يرضون عنهم بأنهم "أحفاد الفراعنة" إشارة إلى عظمة ما أنجزوه في هذا المجال أو ذاك ـ أقول: إذا كان هذا مما يُتَسامَح معه، فلا ينبغي أن ينسحب الحكم نفسه على مواقف أهل الفكر وحملة الأقلام.

ولن نبعد كثيراً حين نقول: إن شعور المصريين بعد ثورة ٢٠١١م بالزهو نتيجة ما حققوه فيها من إنجاز عظيم قد طغى بوضوح على تقييماتهم للشخصية المصرية في عمومها، وهو ما حدث كذلك في تقييمات كثير من الأقلام العربية والغربية، بعد أن كان لهم جميعا رأي غير هذا. ولعله أمر طبيعي يمس طريقة تفكير الإنسان وتأثرها بضغط أحداث الواقع، خاصة ما يكون منها مفاجئا وضخما بحجم الثورة المصرية.

٤٤- E. W. Gilbert, *The idea of the region,* p. 130 بواسطة: حمدان، **شخصية مصر**، المجلد ١، ص ١٦.

من المؤكد أننا نستطيع أن نزهو ونفخر بما أنجزته الثورة المصرية الأخيرة، ونعلن مع كثيرين انبهارنا به، لكن ينبغي ـ في الوقت نفسه ـ ألا نفصل الإنسان عن مجموعة الظروف الخارجية المتداخلة التي تحيط به، والأحوال النفسية المعقدة التي يمر بها، كما ينبغي تأكيدُ أن الجمع بين هذا وذاك يؤدي إلى إنتاج العمل الثوري أو أي عمل ينجزه الإنسان، بدون اشتراط أن يكون هذا حكما قطعيا على كل أجيال المجتمع. ومعنى هذا هو ضرورة أن تكون قراءاتنا مقصورة على جيل محدد، أو مقيدة بشروطها التي تمت فيها، وألا نطمح إلى أن نقدم قراءة عامة تشمل ألف سنة مثلا من عمر مجتمع إنساني يدخل عليه كل يوم نصيبه من التغير والتطور.

وما نلحظه من تشابه بين أجيال الأمة الواحدة، ينبغي ألا يغرنا عن أن هناك أيضًا وجوه اختلاف بينها قد تكون كثيرة وقد تكون قليلة، لكنها قائمة على كل حال، وتعكس الجانب المتغير من حياة المجتمع، كما أن وجوه الشبه قد تعكس الجانب الثابت منها.

وفي رأيي أن قراءة الشخصية في إقليم ما تحتاج إلى تقرير بعض الحقائق التمهيدية أولاً، ولعل في مقدمتها ما يلي:

١- ليس هناك شعب يمكننا أن نصفه لذاته وجنسه بأنه شعب فريد دون بقية الشعوب، وإن كان في إمكاننا أن نصف نوع الإنسان كله بأنه فريد بالنسبة لما نعرفه من أنواع الموجودات الأخرى في هذا العالم.

٢- ووفقا لهذا فإن استعداد مجتمع إنساني ما للتفوق على المجتمعات الأخرى يشبه استعداد الفرد لمعرفة القراءة والكتابة، فقط يحتاج إلى الظرف الملائم مع إزالة المانع.

٣- يمكننا أن نصف إقليما ما بأنه فريد في إمكاناته وموقعه قياسا إلى غيره من أقاليم العالم، وذلك لما تمتاز به الجغرافية من ثبات ووضوح.

٤- الاستقراء التاريخي للشخصية الإنسانية في إقليم ما لا يعطينا حكما صادقا في كل الأحوال، فشعوب القرون الوسطى الأوربية الضعيفة ثقافيا والمتشددة دينيا وأخلاقيا والهمجية سلوكيا مثلا، هي نفسها صاحبة الجهد الأكبر في إنجاز الحضارة الحديثة على قواعد أخلاقية واعتقادية تتناقض من نواح كثيرة مع ما كانت عليه في القرون الوسطى.

٥- التشابه في بعض المقومات الشخصية لمجتمع واحد في عصرين أو عدة عصور، لا يختلف كثيرا عن التشابه بين مجتمعين مختلفين أو عدة مجتمعات في عصر واحد، وهذا يعني أن عطاء الإقليم أو الظرف الاجتماعي والحضاري والنفسي هو الذي يؤسس للتشابه في كل الأحوال.

إن الأفضل ـ في رأيي ـ لكي تكون القراءة التي نريدها متكاملة وعامة قدر الإمكان، أن نجمع بين الاستقراء التاريخي وبين التعرف على تأثير الامتيازات الخاصة التي تتمتع بها الحالة المدروسة جغرافيا وثقافيا وفق اللحظة الراهنة، والتي قد تمتد لعشرات السنين السابقة وعشرات أخرى آتية.

ووفقا لما سبق من الحديث عن جوانب الثبات وجوانب التغير المؤثرة في الشخصية الإنسانية، فقد شارك في صناعة مصر الحالية بإمكانات إنسانها ـ فيما يبدو ـ عاملان رئيسان:

- **التاريخ المصري بموروثه المتراكم:**

ففي أغلب أدوار التاريخ تمتعت مصر بمكانة ثقافية بارزة، قد يخفت صوتها أحيانا، إلا أنها سريعا ما يُعَاد اكتشافها، لتسهم في إبراز القوى الكامنة لإنسانها. بل قد تكون هذه الثقافة مطمورة أو مغيَّبة عن العيون، إلا أنها تكون متاحة كذلك لدى أول مبادرة واعية لتوظيفها، فإذا وُهِبَت مصر شخصيات فكرية وسياسية قائدة يمكنها إحداث بعث اجتماعي وعلمي وسياسي فيها، كانت الأداة قريبة والتاريخ غير خاف على سكّان البلاد.

وليس معنى ذلك أن التاريخ أو الثقافة المصرية المتراكمة قادرة على أن تتحرك بالمجتمع إلى الأمام مع احتفاظها هي نفسها بصورتها التقليدية، بل إن الثقافة نفسها ستمثل أداة للتغيير وتتعرض هي نفسها لأشكال من التطوير أيضًا، كما حدث بالنسبة للتراث الأوربي القديم والفكر الفلسفي الإسلامي إبان عصر النهضة الأوربي، فقد وظف العقل الأوربي الحديث عموم ما وصله من الفكر العقلي السابق عليه في نقد الواقع والانتقال به إلى النهضة، ثم كر على هذا التراث كله ينتقده بالأداة نفسها، أي العقل.

ولعل البقاء العيني لكثير مما شيده المصريون القدماء أو صنعوه طوال عهود متطاولة، قد سهل إعادة التواصل معه من زمن إلى آخر، في حين أن الثقافة الإسلامية لم تحتج إلا إلى بضعة آلاف من المخطوطات، وبضعة آلاف من الخطباء والوعاظ، وبضع مئات من العلماء، لكي تكون قريبة المتناول في بلاد شمال النيل.

إن الموروث الثقافي الذي أنتج في عصور مصرية مختلفة قد أتيح له التوالد باستمرار، واحتفظ بقدرته على العودة كلما طالته يد الطمس، فربما يكون العصر الروماني قد طمس كثيرا من صورة التفوق المصري القديم، وألحق بلاد النيل به باعتبارها مصدراً لطعام الإمبراطوية الذي لابد لتحقيق السيطرة عليه من سحق سكانها وثقافتهم، إلا أن الموقع المتميز لمصر قد وجه الفتح العربي إليها منذ سنوات الإسلام المبكرة، وضخ الإسلام في البلاد ثقافة أقوى وأكثر تماسكا مما كان من قبل، بل ضخ ثقافة غنية قابلة للنمو والزيادة، وهو ما شارك المصريون فيه بنصيب كبير منذ تمكنت راية الإسلام فوق أرضهم.

- **الجغرافيا بإمكاناتها:**

وتتمثل المعادلة الجغرافية لمصر في أنها إما أن تكون قوية سياسيا أو تابعة لقوي(٤٥)، وقد ذكر الدكتور حمدان "أن مكانتنا هي محصلة مكاننا وإمكانياتنا على حد سواء، وبصيغة رياضية: إن معادلة القوة في مصر هي: القوة = الموقع في الموضع"(٤٦)، وقال عن مصر: "إننا إزاء حالة نادرة من الأقاليم والبلاد من حيث السمات والقسمات التي تجتمع فيها، فكثير من هذه السمات تشترك فيه مصر مع هذه البلاد أو تلك، ولكن مجموعة الملامح ككل تجعل منها مخلوقا فريدا فذا حقا"(٤٧).

ويظهر النيل هنا في كل الآراء باعتباره ضمانة ربانية ببقاء الخصب في البلاد وتوفر أسباب العمران والإقامة الإنسانية فيها.

وهنا نلاحظ أن الحديث هو عن العوامل الثابتة، ولذلك من حق المفكر أن يدعي اطراد تأثيرها ما دامت قائمة وموظفة بالطريقة نفسها التي كانت توظَّف بها من قبل، ولا يوجد ما يعوق تأثيرها.

وبالعودة إلى المعادلة الجغرافية لمصر، وهي أنها إما أن تكون قوية أو خاضعة لقوي، سنجد أن القوة السياسية والاقتصادية والعسكرية القابلة للبقاء فيها لا بد أن تكون مصحوبة بثقافة قادرة على التشييد والمواجهة معا، وهي تلك الثقافة التي تتمثل جذورها المادية في إنجازات مصر القديمة، وأصولها المعنوية وثمارها المتنوعة في الشخصية الحضارية الإسلامية بما اجتمع تحتها من تعدد مذهبي وديني في صفوف المصريين والعرب عامة.

ومن هذا المنظور يمكن لأصحاب الدين من أهل مصر أن يجدوا لأنفسهم نسبا قويا لا حرج فيه إلى الفراعنة القدماء ـ مهما بدا من مظاهر وثنية في حضارتهم ـ أولئك الذين بنوا أقدم مجد حضاري معروف في تاريخ الإنسان، وذلك أن مصر تظهر على صفحة التاريخ منذ القدم على أنها مسرح ملائم بل

٤٥- جاء في أحد مكتوبات الحملة الفرنسية إلى الأعيان في مصر "أن قطر مصر هو المركز الوحيد، وأنه أخصب البلاد، وكان يُجلَب إليه المتاجر من البلاد البعيدة، وأن العلوم والصنائع والقراءة والكتابة (؟؟) التي يعرفها الناس في الدنيا أخذت عن أجداد أهل مصر الأُوَل، ولكون قطر مصر بهذه الصفات طمعت الأمم في تملكه"، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٨م، ج ٣، ص ٣٧.

٤٦- حمدان، **شخصية مصر**، المجلد ٢، ص ٦٩٣.

٤٧- المصدر السابق، المجلد ١، ص ٣٤. وقد وصف نابليون بونابرت في رسالته الأولى إلى المصريين مصر بـ "الإقليم الحسن الأحسن، الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها (مثله)" الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، المجلد ٣، ص ٤.

مثالي للتفوق الإنساني، ما دامت لدى إنسانها عزمة صادقة، فتبقى ضريبة الإقامة في هذه البقعة من الأرض حفظ عهد السالفين بالتفوق والسمو.

ومثل هذه الأسباب تعلّم الإنسان البناء والتشييد والإنجاز بصوره المختلفة، وهو ما يحتاج عادة إلى أناة وصبر وفن تتعارض مع المكدِّرات الاجتماعية، وتستجيب للنظام والانضباط وتوزيع الأدوار بين القادة والجنود، وتكره الفتن والاختلاف والتنازع، إلا أن هذا ليس كل ما في جعبتها دائما.

إن موقع مصر الجغرافي لا يتيح لها خيارا في أن تبقى بلا دور عالمي وإقليمي، فإمكانات الاستقرار الحضاري وفيرة فيها، والمسرح الجغرافي لها في هذا الركن الخطير من العالم مفتوح أمام الطامعين والمواطنين على السواء، إلا أنه من الواجب على أهل الوطن أن يتقدموا نحو هذه المهمة الخطيرة وفي ركابهم ثقافة متماسكة ومتينة يمكنها أن تمنح العالم شيئاً.

والإنسان الذي ينشأ في ظروف كهذه يميل عادة إلى الانضباط والانتظام في البيئة الحضرية، وإلى الصبر والأناة في البيئة الريفية، ومن هنا يَسْلس قياده، نظراً لأن قناعته قائمة على أن الطاعة واجبة وأن الاعتراض على ولي الأمر قد يقود إلى فتن تختل لأجلها الأحوال، ويرتفع الأمن عن العباد.

ولا شك أن هذا وضع إن سمح ببناء حضارات وتأسيس مدنيات، إلا أنه يفتح باب الجور أمام السلاطين على مصاريعها كما حدث تاريخيا، حيث يسوسون أناسا لا يرون في الاعتراض إلا جانبه السلبي.

ومع هذا، فإن ظروفا ما قد تتجمع، فلا يبقى للحياة نمط محفوظ، أو صورة ثابتة العناصر، فنفاجَأ بما ليس في الحسبان من الحوادث والتطورات، والسبب هو مرونة المجتمع البشري عموما، واستعداده لاحتمالات تتجاوز كثيرا ما سجّله التاريخ في أدواره السابقة.

الواقع المتحدّي:

على الرغم من إمكان التسليم بوجود جانب سلبي في النمط السائد في علاقة الحاكم بالمحكوم خلال التاريخ المصري القديم، فإن ثمة جانبا دقيقا يفتح المجال لفهم المفاجأة الثورية التي صنعها الشعب المصري في عام ٢٠١١م، وتلك هي أن إمكانات الإنسان منها كامن ومنها ظاهر، والكامن يمثل جانب الاستعداد أو القابلية، ودائما لا تتحول القابلية من قوة إلى فعل إلا بشروط مناسبة، ولعل الوعي هو أهم شروط هذا التحول، وليس ثمة عصر قد أتاح للإنسان المعلومة التي هي مصدر مهم للوعي ـ مع إشكالات ضخمة خاصة بضخها وتوظيفها ـ بهذه الكثافة التي يشهدها عصرنا.

إلا أن هذا حكم عام، وليس خاصا بالمصريين ولا التونسيين ولا غيرهم، وهنا تتدخل جوانب حاسمة في قضية تحويل الاستعداد الإنساني العام للثورة إلى حقيقة فعلية، وتتمثل هذه الجوانب فيما يلي:

ـ مستوى التناقض الذي تتمتع به الحالة الداعية إلى الثورة، وقد بلغ هذا الأمر في الحالة المصرية ذروته، إذ تناقض الواقع المصري قبل الثورة بعقود مع التاريخ والجغرافيا والمنطق العقلي الذي لا يقبل أن يكون مقياس الثراء والسيطرة في الدولة هي الانتساب إلى حزب أو عدم الانتساب إليه.

ـ الوعي بالخاص والعام، وأعني به ما أدته المعلومة من وظيفة خطيرة في إثارة العقول والمشاعر ضد الأنظمة القمعية، فقد أدركت الجماهير وقادتها المعلوماتيون ـ وهم شريحة الشباب العاملة في مجال الحواسيب أو التي يمثل هذا الجهاز جزءا مهما من نشاطها اليومي ـ أدركوا أن الواقع العام ليس سيئا فحسب، ولكنه يتجه باستمرار إلى مزيد من السوء والانحدار، وأن فريق السلطة مستمر في تسخير كل إمكانات الدولة في خدمة مصالحه دون مراعاة لأيِّ مبدأ وطني أو ديني أو أخلاقي، ودون أن تصل تناقضاتهم في هذه الناحية إلى سقف أو مستوى معين تقف عنده. وأما الوعي بالخاص، فقد ولَّد الرواج المعلوماتي طبقة من الشباب ربما لا تكون لهم خبرة معرفية فكرية عميقة، إلا أنهم أدركوا أخطر ما في روح العصر، وهو سلطة المعلومة التي جعلتهم يشعرون ـ من خلال هذه الإمكانات ـ أن عناصرهم أفضل من العناصر الممسكة بالسلطة والمرشحة للاستمرار في الإمساك بها في المستقبل، وأن السكوت على جبروت هؤلاء ونحن نقدر على مقاومتهم جريمة لا تُغتَفَر.

ـ عبور الحاجز النفسي المانع من مواجهة السلطة، وقد توفر ذلك في مصر من خلال اعتياد الشارع المصري على التظاهر خلال العقد الأخير، وجراءة الإعلاميين وأصحاب الرأي على انتقاد النظام الحاكم بكل مستوياته، وأخيرا نجاح الجارة التونسية في إبعاد ديكتاتورها.

وأما الخصوصيات المصرية، فعلى رأسها الوضع دائم التحدي، والنابع من موقعها الجغرافي الثابت والثقافي المتراكم، فـ: "قد فرض الموقع المتحدي أن يصبح الشعب المصري هو الشعب المقتحم، مثلما فرض عليه أن يكون الشعب اليقظ الواعي للعالم المحيط"(٤٨)، كما فرض عليه أخيراً أن يكون ثائرا ضد حاكمه تحت ضغط الظروف السابقة.

والتحدي دائما يمثل استفزازا واستحثاثا للقوى الفردية والجماعية الكامنة في الإنسان حتى تبرز، لقد وجد الإنسان في تعامله مع الطبيعة تحديا لبقائه، وذلك لما فيها من مخاطر، ولأن ضروريات حياته كامنة فيها، ولا ينالها بغير جهد، وقد دفع هذا نوع الإنسان إلى تطوير وسائل سيطرته على الطبيعة سعيا إلى تجنب مخاطرها، وتيسير الحصول على ضروريات بقائه فيها.

٤٨- حمدان، **شخصية مصر**، المجلد ٢، ص ٧١٢.

وعلى منوال قريب من هذا تجري أمور المجتمع في العلاقات المتبادلة بين طبقاته، فأكثر الطبقات مقابلة للتحديات مع وجود قدر مناسب من صلابة العود هي الأكثر قدرة على صناعة الحياة، ومن هنا كانت الطبقة المتوسطة التي لم يكسر الفقر ظهرها، ولم يليّن الترف قناتها، هي الأكثر قدرة على النهوض بالمجتمعات، وإحراز النجاح في مختلف المجالات.

ولعل السياسة الدولية تسلك هذا الطريق نفسه أيضًا، فدولة بلا منافس قد لا تجد حافزا للإنجاز والتفوق. وإن كنا نلحظ أن الدولة الإسلامية في عنفوانها كانت تتقدم بفعل عوامل دفع داخلية أكثر من النظر إلى وجود منافسين في الساحة الدولية، فإن هذا حال قد يكون فريدا في التاريخ كله، كما أن التحدي الذي يمكن أن يمثل دافعا للمسلمين إن لم يكن متمثلا في منافس خارجي، فقد تمثل في شعور بتحدي المسؤولية الإسلامية تجاه الأمم، حيث يرى المسلمون أنفسهم أمام تحدي إبلاغ الرسالة الإسلامية إلى العالم.

لقد عيب على الجماهير المصرية طويلا صعوبة استجابتها للخروج مطالبة بحقوقها، ورضوخها التام في يد جلاديها، ووُصِفوا بالبلادة وضعف الشعور بالكرامة الإنسانية، وتبارى الكتّاب والمؤلفون في الإجابة على السؤال: "ماذا حدث للمصريين؟"، لكن خميرة الثورة التي كانت جاهزة قبل حركة الجيش في عام ١٩٥٢م للانفجار في وجه القصر والإنجليز تأجلت في انتظار وضع آخر مأزوم لم يتأخر طويلا، وظهر للواقع في عهد السادات، ونفّس عن نفسه قليلا في ثورة الخبز في يناير سنة ١٩٧٧م، ثم تكرر الانفجار من جديد بعد أربع وثلاثين سنة كاملة في يناير سنة ٢٠١١م في صورة أوسع بكثير من كل ما سبق من انفجار ثوري في تاريخنا.

يقول أنور السادات في مذكراته عن الظروف والملابسات التي سبقت ثورة ١٩٥٢م مباشرة: "كان حريق القاهرة هو جرس الإنذار قبل ثورة دموية لو أنها قامت لأحرقت وهدمت كل شيء"(٤٩). فلم تكن حركة الجيش في هذا التاريخ إلا لونا من التعامل مع وضع قابل للانفجار أصلا.

وجاء عصر حسني مبارك، فبدا أن انفراجة ما يمكن أن تحدث، وأن عصرا مصريا جديدا يمكن أن يأتي، وأن طي صفحة السادات وعبد الناصر سيتيح لمصر واقعا سياسيا واقتصاديا أفضل. إلا أن كل هذه الآمال لم تلبث طويلا حتى تبخرت، ولم يكن العهد الجديد مجرد افتتاح لمرحلة أخرى من الفساد والديكتاتورية، بل جاء ليراكم فوق ما سبق مزيدا من القمع والفساد، وقطع نسبه عن ثورة يوليو ليصله

٤٩- محمد أنور السادات: **البحث عن الذات**، المكتب المصري الحديث، القاهرة، ١٩٧٩م، ط ٣، ص ١١٧.

بحرب أكتوبر التي لم تنفك عنده عن عملية السلام مع الكيان الصهيوني، فجاء التماهي مع إسرائيل نتيجة طبيعية لهذا الفهم وذاك التفكير.

مهما يكن، فقد كانت للحالة المصرية خصوصيات تتمثل في الإمكانات الثقافية والسياسية العالية التي تتمتع بها مما يفرضه الموقع والتاريخ والمؤثرات العصرية، إضافة إلى المشتركات العامة التي تدفع كل من يعاني من الظلم ويثق في قدرته إلى الوثوب على ظالمه. وهي صفات بشرية عامة تخفت أحيانا وتبرز أحيانا تحت وطأة التطورات والتغيرات التي لا تكف عن الوقوع في دنيا البشر.

وفضيلة الجيل الذي صنع الثورة المصرية في ٢٠١١م هو أنه استجاب للتحدي وللمؤثرات الداعية إلى مقارعة النظام المستبد، وعبر حاجز الخوف الرهيب، وقدم تضحيات غالية من دمه وماله ووقته وأمنه، وصاغ ثورته صياغة تشير إلى استعدادات كبيرة كامنة في النفوس يمكن أن تقوم عليها حضارة راقية.

Human Psyche and Revolution

This paper deals with the general reasons for a revolution and tries to explain human psyche in its mutable and immutable conditions through which the process of revolution passes. It makes a special reference to Egypt to see how the early and contemporary scholars have looked at the Egyptian psyche. The paper gives a new perspective on the Egyptian psyche in the light of different social dynamics and challenges which this nation faces.

The main question is: what is that which makes man incline toward a certain line of action under all conditions? Is it culture, episteme, geography or history? And to what extent does the society influence individuals' role differentiating a particular group of people from others? Is a specific human society having a particular geographical location is bound to undergo change due to that socio-geographical location?

The paper draws the conclusion that it was the prolonged contradiction with history and logic, in which Egyption people lived since decades being fed the notion that only by standing alongwith the ruling party could they survive, which forced the Egyption revolution of 2011 to take place.

At the same time, newly available means of information played an important role in charging the emotions and brains of people against suppressive instruments of power. The majority of people were convinced that their situation was not only bad but was going to be worse with time. The flux of information led to the formation of a group of youngsters who might not have deeply reflected on the situation but they knew and sensed the problem of the time and its graveness which was enough for the trigger to be pushed.

***